

الصراع بين التومرتيين وعبد المومن

محمد بنشريفة

دعاني إلى تناول هذا الموضوع في حديث الخميس أني عثرت على رسائل موحّدية جديدة تكرّر فيها ورود اسم ينعت بلقب السيد، وهو اللقب الرسمي الذي ينعت به بنو عبد المومن، هذا الاسم هو السيد أبو حفص عمر بن عيسى. وتذكر الرسائل أنه كان واليا على ولاية شاطبة في شرق الأندلس. ولما رجعت إلى الحوليات التاريخية وفي مقدمتها «البيان المُعرب» لم أجد لهذا الاسم ذكرا بين أسماء الولاة الذين أسندت إليهم ولايات في المغرب والأندلس وإفريقية في عهد الموحّدين. ومن حسن الحظ أننا وجدنا معلومات حوله في مجموع الرسائل الموحّدية التي ذكرتها آنفاً وعنوانها «نور الكوائم وسجع الحمائم» للكاتب أبي بكر عبد الرحمن بن محمد الشاطبي الذي كان كاتباً لدى السيد أبي حفص عمر بن عيسى خلال مدة ولايته على شاطبة. ولو لم يصل إلينا مجموع الرسائل المذكور لظل هذا السيد مجهول الاسم منسي الذكر.

لكن لماذا الحديث عنه في موضوع الصراع بين التومرتيين وعبد المومن. والجواب أنه تبين من الرسائل المشار إليها أن السيد أبا حفص عمر ابن عيسى هو تومرتي من جهة الأب ومومني من جهة الأم، فعيسى المذكور في اسمه هو

الشيخ أبو موسى عيسى بن ومغار الهرغي أخو المهدي بن تومرت، أما أمّه فبنت عبد المومن. وقد عرفنا هذا من قول ابن مغاور الشاطبي كاتب السيد في الاعتذار إليه، قال هذا الكاتب : «وغيبت عن مجلسه أياما في نزعات ومنتزهات، وخذ في حلال وهات، ثم صعدت إليه، وهجمت بالاعتذار إليه، وأنشدته :

يا سيذاً أحرز شأوا العلى	في عفوه الأبعد من شدة
ومن غدا المجد له حلّة	من عمّه المهدي أو جده
عبدكم الأبق مستوحش	يعثر للخجلة في برده
فابذل له العتبي ودع عتبه	ما دامت الأعذار من جنده

فقال السيد : قد قبلنا اعتذارك، وعرفنا أخبارك».

فمن قول هذا الكاتب الشاعر : «من عمه المهدي أو جده» استفدنا أن أبا حفص عمر بن عيسى هو ابن أخي المهدي بن تومرت وسبط عبد المومن بن علي. وتقدم الرسائل دليلا ثانيا هو قول ابن مغاور متحدثا عن وفاة السيد أبي حفص : «واتصلت وفاته رحمه الله بابن خاله السيد الأجل الأفضل أبي الربيع ابن السيد الأكرم أبي محمد ابن الخليفة الأعظم أمير المومنين وهو ببلنسية حرسها الله فركض طرفه وأجهده، رجاء أن يدركه قبل أن يودع لحده» وفي المراثية التي ألقاها ابن مغاور عند وقوف أبي الربيع على قبره يخاطبه قائلا :

يا سليل الخال صبرا بعده أنت أعلى أن نسلى وأجل

والآن وقد عرفنا أن أبا حفص عيسى بن عمر هو ولد عيسى أخي المهدي الذي ثار على عبد المومن ودبر مع أخيه مؤامرة ضده لنتحدث عما كان من أمرهما.

لم يكن للمهدي ابن تومرت صاحب الدعوة ومؤسس الحركة ولد، فقد كان كما قيل حصورا وكان له ثلاثة إخوة هم عيسى وعبد العزيز وأحمد. فأما أحمد

فكان كفيفا عاجزا لا يقدر على شيء، وأما عيسى وعبد العزيز فقد كانا طامحين إلى السلطة طامعين في الأمر متشوفين إلى خلافة المهدي بكثير ولا يوجد ما يشير إلى طبيعة العلاقة بينهما وبين أخيهما الأكبر، وكل ما هنالك أن البيدق مؤرخ المهدي وحركته ذكر هذين الأخوين مع أخيهما الكفيف في «أهل دار الإمام» الذين يسمون اختصارا بأهل الدار ولكنهم يجيئون في آخر القائمة التي تشتمل على تسعة عشر اسما يدعى كل واحد منهم بلقب الشيخ. ويبدو أن المهدي بن تومرت لم يكن يعطي الأسبقية لقراة النسب أو عصبية القبيل، وقد استبدل هذا بنظام الصحة وقانون التآخي، فقد آخى بين عدد من أصحابه وبين هرغة قبيلته مستلهما في ذلك السيرة النبوية في التآخي بين المهاجرين والأنصار وممن آخى بينهم وبين قبيلته عبد المومن بن علي الكومي الزناتي الذي كان لقيه المهدي بملالة عندما كان راجعا من الشرق وتوسم فيه ما توسم فاصطحبه معه وأصبح من طلبته النابغين وأصحابه الأقربين وكتب له أن يرث علمه ويكون خليفته لسابقته في خدمة الحركة الموحدية وحماسته وشجاعته ونباهته وكفأته ومواهبه القيادية. وينسب إليه الباحثون «استراتيجية» قامت على عدم مواجهة المرابطين في السهول إلا بعد السيطرة على الجبال المحيطة بها لتطويقها. وقد أدى نجاحه في هذه «الاستراتيجية» إلى نهاية دولة المرابطين. ومع هذا فإن عبد المومن رغم تبني الهرغيين له وتزوجه منهم فإنه ظل في نظرهم أجنبيا ولم يكن قبوله لخلافة المهدي أمرا سهلا. وقد بقي موت المهدي مكتوما ثلاث سنين من سنة 524 هـ إلى سنة 526 هـ ولم يعلن عن وفاته إلا بعد التوصل إلى حل تحدث عنه الإخباري ابن أبي زرع فقال :

«لما مات المهدي تشوف كل واحد من العشرة إلى الخلافة بعده، وكانوا من قبائل شتى، وأحبت كل قبيلة من قبائل الموحدين أن يكون الخليفة منها وأن لا يلي عليها أحد من غيرها فتنافسوا في ذلك وتحاسدوا فاجتمع العشرة والخمسون وتآمروا بينهم وخافوا أن تفسد كلمتهم ويتفرق جمعهم فاتفقوا على

خلافة عبد المومن لكونه غريبا بينهم ليس منهم مع ما كانوا يرون من ميل المهدي إليه وثنائه عليه فبايعوه».

وقد رعى عبد المومن بعد ذلك لأصحاب المهدي وقرابته مصالحهم. ذكر ابن عذارى أنه لم يزل منذ وفاة المهدي يتألف عبد العزيز وعيس أخوي المهدي ويحسن إليهما بالإحسان التام والإنعام العام، وجاء في رسالة صادرة عن عبد المومن من إنشاء كاتبه أبي جعفر ابن عطية ما يلي : «ولم نزل بعد الإمام المعصوم المهدي المعلوم رضي الله عنه من أول هذا الزمن نحملهم في حجر الكفالة والكفاية، ونجريهم بمجاري العناية والحفاية ونسعى في تدرجهم على مدارج المعرفة والدراية، ونرى وصل أرحامهم من جملة ما يجب لحرمة المهدي رضي الله عنه من الحفظ والرعاية» ويفهم مما ورد في هذه الرسالة التي سنعود إلى الحديث عنها أن أخوي المهدي كان عند وفاته شابين، فقد جاء فيها : «ونحن مع الأخذ بأيديهم وكفهم عما يرديهم نرجو أن شعب الجنون من شبابهم تسكن ومستأنف الأحوال من قبيح آدابهم يحسن». ومن جملة استتلاف عبد المومن لهذين الأخوين أنه زوج بنته لعيسى منهما، وقد كان لعبد المومن بنتان هما صفية وعائشة زوج أحدهما لعبد الله بن وانودين من قادته العسكريين وزوج الأخرى لعيسى أخي المهدي تألفا له. لكن أخوي المهدي كانا يدلان بأخوتهما للمهدي ويتجرآن على عبد المومن ويخالفان أمره. ذكر الورخ ابن عذارى أن عبد المومن لما تغلب على مراكش ودخلها سنة 541 هـ جمعت زينب بنت علي بن يوسف جميع مالها وذخائرها ورفعته إلى عبد المومن فحمد فعلها ونفذ أمره ألا يباع من بنات من معها، لكن أخوي المهدي عيسى وعبد العزيز أخذوا منها بنتين كرها على الخليفة، وهذا أول حضور وقفنا عليه لأخوي المهدي في الفتوحات العسكرية. والحضور الثاني لهما في حركات الموحدين كان بالأندلس في نفس السنة تقريبا، فقد كانا هما ويصلاّتين ابن عمهما أو صهرهما ضمن الجيش الذي دخل اشبيلية سنة 541 هـ وذلك بعد فتح مراكش.

وقد تحدث المؤرخ ابن عذاري طويلا عن قبيح فعلهما وسوء سلوكهما ونقل عن المؤرخ ابن عبد الملك المراكشي ما يلي قال :

«لما وصل عبد العزيز وعيسى إلى إشبيلية مع عسكر الموحدين الغازين نظر الناس حيث ينزلونهم للسكنى فاتفق الرأي على حومة الجبانة من داخل إشبيلية ليكونوا قريبا من قصر ابن عباد حيث سكنه أشياخ الموحدين كأبي يحيى بن الجبر وأبي إسحاق براز الناظر في المخزن بالأمر العالي ليتصل الموحدون بعضهم ببعض، فنزلوا فيها فلم يحفظوا سكنها وابتدأوا بحرق سقفها وعمل أصاطب (اصطبلات) من بيوتها لدوابهم، وكانوا قوم سوء، ففسدت الديار في أقرب مدة واستطالت أيدي أتباعهم على الأندلسيين المجاورين لهم ففروا أمامهم وساعت حال أهل إشبيلية بهم»، ويبدو أن عبد المومن في هذا التاريخ كان يتبع مع «آل الشيخ» كما كانوا يدعون، سياسة الترضية لهما ولمن يسندهما من الهرغيين، وهذا ما يفسر لنا وجودهما كقائدين في هذا الجيش الذي دخل إشبيلية. ولسنا ندري هل تركا إشبيلية باختيارهما بعد أن عاثا فيها فسادا، كما يقول المؤرخون، أم أنهما اضطرا إلى الخروج منها حين ساءت أحوالهما فرجعا إلى مراكش ومعهما يَصْلَاتْن. وقد بعث عبد المومن قائدا محنكا من أهل خمسين ليكون واليا على إشبيلية ويصلح ما أفسده أخو المهدي حسب الروايات التي كتبت بعد أن تمكن عبد المومن من القضاء عليهما وقد بدأ أولاً بِیَصْلِیْتَن الذي كان يحرك الأخوين ويحرضهما على عبد المومن ويدفعهما إلى خلع الطاعة. وكان - كما جاء في «البيان المغرب» لابن عذاري إذا دخل مجلس الأمر العالي - يعني عبد المومن - دخل قاطبا، وإذا خرج خرج غاضبا فيستريح، بزم الأمر بالتصريح، وينسب إليه كل قبيح، حتى فشا سره وسر أصحابه، ووضح وضوح الشمس غدره وغدر أترابه». ولما توجه عبد المومن بجيش الموحدين إلى فتح بجاية وجهاتها سنة 546 هـ وكان من قادة هذا الجيش يَصْلَاتْن وابن وانودين صهر عبد المومن تنازع الأخير مع يَصْلَاتْن فقال هذا : ما

حمقك إلا الذي أعطاك وقتلوه. ولما بلغ عبد المومن ما قال يصلاتن وما فعل غضب وأمر من تحيل في القبض عليه بحيلة حكاها البيدق فتم اعتقاله وحمل إلى سببة وضرب عنقه وصلب سنة 546 هـ. وقد أثار إعدامه غضب قبيلته هرغة وأهل تينمل فأعلنوا في سنة 548 هـ عصيانهم فقتلهم عبد المومن وهجر بني أمغار - يعني أخوي المهدي - وسجنهما ثم عفا عنهما وسرحهما ونفاهما إلى فاس على أن يختار لهما خير منزل وأمر لهما - كما في رسائل موحدية - بما يقوم بهما وجميع أهليهما وبنيهما «من المؤاسات، والمحترث والجنات». ولعل عبد المومن راعى في هذا قرابتهما من المهدي وعلاقة المصاهرة، ولكن هذين الأخوين ظلا متربصين ينتظران الفرصة، وقد سنحت لهما عندما ترك عبد المومن مراكش وأقام في سلا وأعلن فيها سنة 548 هـ ولاية العهد لولده أبي عبد الله محمد، وعين أولاده ولاية على ولايات المغرب والأندلس، وكان بعضهم ما يزال في مرحلة التعلم فعين لهم من يعلمهم ويدربهم، وهنا تأكد لأخوي المهدي أن عبد المومن رد المهدوية الموحدية دولة مومنية فما كان منهم إلا أن كاتبوا أتباعهم واتفقوا معهم على خطة شرحها بتفصيل المؤرخ البيدق - وهو شاهد على ذلك العصر - ووصفها ابن عطية في رسالته التي سنشير إليها وذكرها كذلك ابن عذاري. وقد تمكن الأخوان من الخروج من فاس رغم الحراسة عليهما التي كلف بها الجياني عامل فاس حينئذ وسلكا الطريق التي تمر من تادلا عدوا ليلا ونهارا لم يتوقفا إلا عند أنصار لهم بتادلا أضافوهم وزودوهم. ويذكر البيدق وابن عذاري أنهم لما وصلوا إلى مراكش نزلوا ببخيرتهم التي بباب الدباغين وذبحوا بقرة ووجَّهوا عن إخوتهم وأعطوهم «البركة» ثم دخلوا مراكش وقت الفجر وقصدوا الجامع حيث يصلي الوالي الذي تركه عبد المومن نائبا فطلبوا منه مفاتيح القسبة أو القصر فامتنع فأمروا عبيدهم فضربوه وقتلوه وأحدثوا أحداثا ولكن حركتهم باءت أخيرا بالفشل لسوء تدبيرهم ووقوف السوق في وجوههم وخذلان أنصارهم لهم كما تقول المصادر التي تزعم أن السوق تغلبت عليهم فقتلت عبيدهم بسوق الصباغين

وقتل عبد العزيز عند باب الدباغين وقتلت عيسى عند باب ايلان وقتلت كاتبهم بباب أغمات. حدث هذا وعبد المومن في سلا ولما كتب إليه عامله على فاس يعلمه بخروج الأخوين من فاس وجه وزيره أحمد بن عطية ليصدهم عن تعديهم، ويردهم عن التغيير الذي يريدهم.

كما تقول رسالته ولكنه لم يصل إلى مراکش حتى كان الأمر قضي أما عبد المومن فقد ظل يستطلع ما حدث إلى أن وصله الخبر وهو في الطريق إلى مراکش ولما حلّ بها ووقف على الوثائق التي عثر عليها في دور أخوي المهدي وكانت تحتوي على أسماء أتباعهما قبض عليهم وقتلوا وكان عددهم ثلاثمائة.

هذا وفي «المعجب» لعبد الواحد المراكشي رواية أخرى لهذه الحادثة مخالفة لرواية البيدق وابن عذاري التي تشهد لها رسالة رسمية ديوانية، فقد وجه عبد المومن في أعقاب هذه الحادثة رسالة إعلامية إلى جميع البلدان من إنشاء الوزير الكاتب أبي جعفر ابن عطية شرح فيها أسباب الحادثة وظروفها وهي طويلة توجد في مجموع «رسائل موحدية» التي نشرها ليفي بروفنسال وهي تبدأ بشكر الله «على ما وطأ أمره العزيز ومكّنه، وأضعف به كيد الشيطان وأوهنه» ومما جاء في هذه البداية قوله : «وقد تجد الآن من نصر الله وفتح، وما تعجز القوى البشرية عن شرحه» ثم تنتقل إلى الموضوع فتقول : «وذلكم أن الأشقياء فلانا وفلانا وأصحابهما كانت نفوسهم الخبيثة كامنة على أذاها وغيونهم السخينة نائمة على قذاها». ثم تتحدث الرسالة عما قدمه عبد المومن إليهم وكيف أنه أخذ بأيديهم في شبابهم فلم يكونوا ينتفعون بالتذكير أو يستمعون إلى التنبيه حتى إنهم انتبذوا عن أمر المهدي بالعراء وكلما ارتفعت أسنانهم إلى أطوار الكهولة هوى بهم حرمانهم في غيابات الغفلة والذهول، وتذكر الرسالة بعد هذا كيف كان يوسع لهم في الأرزاق المنعمة والخيرات المتممة والمنازل المكرمة والخيال المسومة فلا يطيب لهم إلا المال الحرام. وجاء في الرسالة بعد هذا أنه

لما لم ينفع فيهم نصح ولا وعظ هجروا ثم رعي ذمامهم فعفى عنهم وبين لهم أن الذي يثبت به شرفهم، ويرعى معه أولهم السابق وسلفهم إنما هو الاستمسك بعروة الدين، واتباع أمر المهدي على الثلج واليقين ونهوا عن مخالطة الأوباش فأظهروا التوبة ثم عادوا على اثر ذلك لما نهوا عنه وهجروا مرة بعد مرة فعادوا إلى سيئاتهم كرة بعد كرة. وتشير الرسالة اثر ذلك إلى لجوئهم إلى السحر والكهانة والنجامة لمعرفة المغيبات فتقول : «واستبطنوا من سحرتهم وكهانهم شر فئنة وأسوأ عثرة، وترددت عقولهم المعقولة بين نفائثة في عقدها وعاكف على ارتقاب القرانات وترصدها وحاكم على غيب الله بخروج الأشكال على ارتقاب القرانات وترصدها وحاكم على غيب الله بخروج الأشكال من الأشكال وتولدها». وتقول الرسالة انهم بهذا كانوا يرتقبون أمرا كانوا يدعون إليه سرا ومع هذا ظل عبد المومن يحسن الظن بهم ويعاملهم بالجميل فلم يزد هم الرفق بهم ورجاء الخير فيهم إلا نفاقا وطغيانا.

ومن أهم فقرات هذه الرسالة تلك التي تشير فيما يبدو إلى المؤامرة التي كانت ستقضي على عبد المومن لولا أن فداه أحد المخلصين له الذي مات بدله في المكان الذي كان سيغتال فيه، وكان لأخوي المهدي ضلع فيها. وتقول الرسالة إنها لما اكتشفت قتل جميع المشاركين فيها وأبقي على أخوي المهدي واكتفي باعتقالهما ثم أطلق سراحهما ونفيا إلى فاس، وتحكي ما وقع منهما بعد إعلان ولاية العهد التي كما تقول الرسالة «قطعت آمالهم من اختلاصها واغتصابها» وحكاية خروجهما من فاس وما تلا ذلك من أحداث لا تختلف عما عند البيدق وابن عذاري، وهذا الأخير استقى من هذه الرسالة الرسمية. اما المراكشي صاحب «المعجب» فقد ساق رواية مخالفة ويبدو أنه اختلط عنده خبر مؤامرة الاغتيال التي نجا منها عبد المومن بخبر المؤامرة الأخيرة التي وقع فيها الهجوم على مراكش.

لقد حاولنا أن نلقي نظرة على هذا الصراع بين أخوي المهدي ومن ورائهما - فيما يبدو - طائفة من الهرغيين ولكننا نعترف أننا لا نعرف حقيقة الأمر فيها لأنه لا يوجد بين أيدينا إلا رواية واحدة عنها وهي التي دونها خدام عبد المومن.

إن إعلان البيعة لولد عبد المومن وتعيين أولاده ولاية لم يكن وحده السبب الذي دفع التومرتيين إلى تأمرهم على عبد المومن، فقد كان هناك - فيما يبدو - سبب آخر هو استدعاء عبد المومن للعرب وإقباله عليهم، كما أنه اعتمد بعد ذلك على أبناء غومية قبيلته، فلما نجا من محاولة اغتياله قرر استقدام قبيلته غومية فوصل إليه حسب كلام ابن أبي زرع أربعون ألف فارس فصار يعتمد عليهم وهو قرار أغضب الموحدين وعزز شعورهم بأن دولتهم التي قامت أسسها وتقاليدها في تنمل، والتي كانت فيها تراتبية مطبقة ونظام محترم (مجلس العشرة ومجلس الخمسين وأهل الدار) والواقع أن هذه الحادثة شكلت أزمة خطيرة في بداية دولة الموحدين وتسببت في فقدان الثقة بين الموحدين فشاع تجسس بعضهم على بعض كما يذكر ابن عذاري وحاول عبد المومن أن يعالج هذه الأزمة بزيارة ضريح المهدي في تنمل والدعوة إلى ما سمي بتخافر الموحدين والإنعام على المتخافرين، وقد كتب وزيره وكاتبه ابن عطية إلى البلدان رسالة بتخافر الموحدين.

ونرجع بعد هذا لنسأل عن مصير أولاد عيسى وعبد العزيز ولا سيما الأول إذ كان متزوجا ببنت عبد المومن. ولا تشير الحوليات إلى شيء من هذا ولكني كما ذكرت في بداية هذا الحديث وقفت على رسائل موحدية أفادت أن عبد المومن أوى بنته وكفل ولدها الذي هو سبطه فنشأ مع أخواله أولاد عبد المومن واسم هذا السبط أبو حفص عمر بن عيسى. فلما مات عبد المومن عام 558 هـ كان أبو حفص هذا في الحادية عشرة من العمر فتولاه خاله الخليفة الجديد أبو يعقوب

يوسف بن عبد المومن، ولما بلغ أبو حفص هذا العشرين سنة أو أزيد بقليل عينه خاله واليا على مدينة شاطبة وجهاتها ولكنه لم يمكث في الولاية إلا سنة وتوفي ويذكر كاتبه في الولاية ابن مغاور وكان أديبا كبيرا السن والقدر أن السيد كان آية في الأدب والسياسة ويقول فيه : «كان السيد الأجل أبو حفص عمر بن عيسى رحمه الله موطأ الأكناف عاطر الجيب، طاهر الأثواب نزيه الغيب، فاعتبط رحمه الله عند ريعان شبابه، وتآلق شهابه، ابن اثنين وعشرين عاما، لم يلحقه درن عيب ولا استحق زاما، ومضى نقي العرض، تبكيه السماء والأرض، وتندبه السنة والفرض» وقال فيه أيضا : «فلقد كان رحمه الله هينا لينا حيا زكيا كريما مقبوض يد الأخذ، مبسوط يد العطاء محفوقا بالثناء الحارس من جميع الأنحاء»، وقد أرخ ولايته شاطبة ووفاته بها فقال : «ولي شاطبة في الموفى عشرين من شهر محرم ثمانى وستين وخمسائة وتوفي فيها صبح يوم الخميس الرابع والعشرين من رجب الفرد عام تسع وستين وخمسائة».

ولعل أبا حفص عمر بن عيسى آل الشيخ هو آخر التومرتيين.